

من هنا وهناك

هـ . ج . ولز

وأمرىكا الشمالية ، حيث تنبى الأمم مستقبلها على التطور والتدرج فان أثر ولز كبير جداً . وقد ولد ولز فى القرن التاسع عشر . ولكنه ، بخلاف كثير من الكتاب الانجليز ، قطع الحبل السرى الذى كان يصل بينه وبين وليده القرن العشرين . بل هو ثار عليه فى عقوق وإنكار ، ودعا إلى نفى مؤسساته . ونفى عن عقله وقلبه عبار العصر الفكتورى . وعبارة « العصر الفكتورى » من العبارات المألوفة فى بريطانيا وأمريكا . ذلك أن الانجليز فى عهد الملكة فكتوريا التى تلت الحكم أكثر من ستين سنة كانوا ينبسطون على هذا الكوكب فى توسع جغرافى وتجارى ويزدادون رفاهية ومالاً وسلطاناً . وكان الشعور العام بين الجمهور أن الارتقاء سنة اجتماعية وأن شعب الله المختار هو الانجليز الذين يستعمرون الدنيا ويملاؤها خيرات وبركات ، وأن نظام الامبراطورية هو فضل ونعمة ينعم بها الانجليز على سائر البشر الذين ينشرون بينهم الحضارة — بل الحضارة المسيحية — ويقشعون عنهم الجهل والخرافات ويعلمون بينهم الحق والعدالة . وكان هذا العصر ، للنجاح المادى الذى يسود البلاد ، يلتزم العرف والعادات الاجتماعية وبعد الخارجين عليها ناقصين فى الكياسة أو متبطين على نعم الحضارة . وكانوا من هذا الرضى على أنفسهم وعلى مؤسساتهم يكادون يعمنون العالم : أنه مادام لكل أمة ملكة مثل الملكة فكتوريا ، وديانة مثل الديانة المسيحية ، وتجارة حرة ، فان كل شىء يسير على

مات هـ . ج . ولز فى الثالث عشر من الشهر الماضى عن تسعة وسبعين عاماً . وكان فى الأشهر الأخيرة يشكو من تفاقم مرضه القديم وهو الديابيطس أى البول السكرى . وقد لازمه هذا المرض أكثر من ثلاثين سنة . وكان يعزوه إلى حادث وقع له وهو يلعب مع زميل حين شطحت ساق هذا الزميل فأصابت ولز فى إحدى كليتيه وعطلتها . وكان هذا منذ أكثر من خمسين سنة . ويرجع ولز بذاكرته إلى هذا الحادث لأن الطبيب الذى عالجه من إصابة كليته كان قد قال له إنه سيمرض فى المستقبل بالبول السكرى . ويبدو أنه كان لهذه الكلمة وقع فى نفسه حتى إنه كان لا يفتأ يذكرها . وعند ما صدقت نبوءة هذا الطبيب ألف ولز جمعية من المرضى السكرىين أمثاله لبحث أسباب هذا المرض وعلاجه . وكان هو من أبرز أعضائها . ولا شك أن العناية العلمية التى كان يبذلها ولز ويعالج بها مرضه هى التى أبلغته إلى قراب الثمانين على الرغم من هذا المرض الويل .

وقدمضى على ولز نحو خمسين سنة وهو يؤلف وقد استهوى بقصصه قلوب العامة والخاصة كما أنه كان يرشد الطبقات المثقفة بمؤلفاته الاجتماعية ويوجههم نحو الآراء الجديدة التى يؤمن بها الكثيرون من الساسة والاقتصاديين والاجتماعيين والسيكولوجيين فى جميع أقطار العالم . وأثر ولز ليس كبيراً فى القارة الأوروبية حيث تنبى الطبقات المفكرة مستقبلها على الحركات الانتجارية والثورات الاتقلاية . أما فى بريطانيا والأمم الاسكندافية وهولندا

وأنه لم يدرس الأدب . والواقع أنه جعل العلم يغزو الأدب . فانه بدأ حياته الأدبية بأن استأنف حركة جول فيرن في الخيال العلمي بأن ألف طائفة من القصص وجدت رواجاً عظيماً مثل « حرب العوالم » و « طعام الآلهة » ونحوها .

ونستطيع أن نقول إن وثر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر شرع يرى رؤيا العلم في التقدم البشرى الوشيك . كما أنه أيضاً استطاع أن يرى العفن والفساد في مؤسسات العصر الفكتوري . ولكن بدلا من أن يعالج هذا الفساد بالثورة الماركسية كما هو الشأن في مفكرى القارة الأوربية ، وجد هو العلاج في الطريقة الانجليزية العريقة ، طريقة التدرج والتطور باستخدام العلم . وهو إذا كان قد بدأ قصصه بالخيال العلمى المسرف على طريقة جول فيرن ، فانه انتهى بأسلوب رصين في التفكير العلمى لمعالجة مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذت كثيراً ما هجر القصة إلى المقالة . ثم توسع في المقالات حتى صارت كتباً في دراسة الحضارة وعبوبها . حتى إذا كانت الحرب الكبرى الأولى شرع يتجه بقوة اتجاهاً علمياً ويقول بضرورة الحكومة الواحدة للعالم كله . وقد تطورت هذه الفكرة عنده ، ولكنها منذ ربع قرن وهى بذرية محورية في جميع تفكيره .

وأول تجاربه في هذا الميدان هو « خلاصة التاريخ » الذى ألفه باعتبار أن هذا العالم أمة واحدة قد جاهدت وحاولت في جهادها ، ولا تزال تحاول ، تحقيق الحضارة المثلى . ولأنه قصد إلى هذا الهدف ، فانه كاد يجعل التاريخ فناً إذ هو يستعرض حتى إنه يستصغر شأن إسكندر الأكبر و نابليون الأول ، كأنه يرى فيها صورة غليوم إمبراطور ألمانيا الذى أشعل . في الزعم العام ، الحرب الكبرى

أحسن ما يرام وتنقلب الدنيا إلى جنات يعبى فيها الأسود في صفاء مع الغزلان .

ولم يكن على الرغم من هذا النجاح للمادى ، وهذا الرضا العام بين الطبقات الثرية ، كان هناك نفقة في الأسس . فكان التعطل والفاقة والمرض كما كانت القسوة والفتك بل الخطف والنهب يفشو في أنحاء المستعمرات كما يفشو في أزقة لندن ومنشستر ، في المصانع التى كان يعمل فيها الأطفال ، بن في البيوت التى كانت تعمل فيها الأرامل اللاتي كن يعملن في النهار ويسهرن في الليل في كسب قوتهن بالأجر الضئيل . مما عبرت عنه قصيدة « أغنية الفميص » التى شرح فيها مؤلفها كيف تتعذب هؤلاء الصانعات وكيف تنهر أصابعهن من الأبركي يحصلن لأعلى العيش المنتظم بل على ما يحسك الرمح يوماً بعد يوم .

في هذا الوسط ، وسط العصر الفكتوري ، حيث المجد والتلاؤ في الظاهر ، والعفن والفساد في الباطن ، ولد ولز وبنارد شو وأمثالها من الثائرين . وكان ولز يعيش مع أمه الخادمة في بيت من بيوت الأغنياء . وكان أبوه مدرّساً قليل الكسب في لعبة التنس أو الجولف . وقضى ولز طفولته ، كما كان الشأن بين العائلات الفقيرة في « بدروم » . فلما أتم دروسه الابتدائية عمل في أحد المخازن التجارية الصغيرة ثم اشتغل بالتعليم ودأب في الدرس حتى حصل على شهادة بكالوريوس في العلوم . وقد أخبرنى الدكتور هيوم الذى كان مديراً لمصلحة الطبيعيات في مصر أنه كان يزامله في تلك الدراسة ، وأنه كان يعرف فيه في ذلك الوقت الجهد والذكاء مع الفقر والحاجة .

وأول ما ألف ولز من الكتب هو كتاب في تشریح الحيوان استعمل مدة طويلة بين الطبة الذين يدرسون البيولوجية أى علم الحياة . ومن هنا نرى أن تربية ولز علمية

الاولى . ولكننا مع هذا الاستغراض نجد نبلا حين نراه يعرض لموكب الحضارة كأنه موكب بشرى وليس إنجليزية أو ألمانيا أو فرنسا . كما أننا نحس إحساسه ونجد عاطفته التاريخية تهز قلوبنا كما هزت قلبه حين يصف هذا العالم بأنه « قريتنا الكبرى » .

ومنذ الحرب الاولى إلى الآن وهو في هذا الكفاح الثقافي يحمل على الوطنية كأنها رذيلة . ويوضح لنا أن ربط العالم اقتصاديا يجب أن يربطه سياسياً وثقافياً . ويضرب لنا المثل بمقارنة بين القارة الأوروبية التي تحفل بيا بل من اللغات والأمم المتنازعة المتقاتلة وبين الولايات المتحدة الأمريكية التي يعيش سكانها أمة واحدة بلغة واحدة . ثم يعزو هذا الفرق إلى أن السكك الحديدية قد ربطت الولايات المتحدة فصارت شبكتها التي تربط مواصلاتها سبيلاً لاتحادها ، هذا الاتحاد الذي حرمت منه أوروبا لأن السكك الحديدية لم تدركها قبل أن تستقل أممها وتتفصل أقطارها . ثم يستخرج المغزى فيقول إن الطائرات والبواخر والسكك الحديدية والراديو والتلغراف والبريد الجوي والصحف التي تحملها الطائرات ، كل هذه تربط كوكبنا الأرضي ، كما لو كنا في قرية صغيرة . ولم يعد هناك مجال لأن يتجزأ هذا العالم دولا ودويلات يعيش كل منها في سياسة قروية ومهارة حزبية دون النظر للمصلحة العالمية الكبرى .

وقبل أن يكون ولز عالمياً كان اشتراكياً . ولكنه بسبب تلك الحزازات الحرفية التي تنشأ بين الكتاب والأدباء ، أنكر اشتراكية

ماركس وطعن فيه ، واختصم بذلك جمهور الاشتراكيين الأوروبيين الذين يمدونه مصلحاً معتدلاً يرتقى ويرقع . إنه بهذه المثابة ، أي بالرقي والترقيع ، يؤخر الثورة ويفسد وجدان الطبقة بين العمال . والحق أن ويلز من ناحية المزاج الاشتراكي أقرب إلى حزب العمال الانجليزي الحاضر بل إلى حزب الأحرار منه إلى الأحزاب الاشتراكية الأوروبية . ومن السنين الأخيرة انبسط له آفاق جديدة في تفكيره العالمي . فدعا إلى إيجاد موسوعة كبرى تؤلف للبشر وليس لأمة معينة ، بحيث تبقى هذه الموسوعة مؤسسة عالمية لها كتابها الدائمون ومترجوها وسكريتورها ومكتباتها ومطبعها ، وبحيث تشارك فيها جميع الأمم ، وترجم إلى جميع اللغات ، وتطبع على طريقة الورق السائب حتى يستطيع تحريرها وتغيير أوراقها عاماً بعد عام بل شهراً بعد شهر وهي بالبيت عند قراءها .

وفي حياة ولز مأساة هي تطوره الديني . فقبل نحو ثلاثين سنة ألف نحو أربعة أو خمسة مؤلفات يدعو فيها بروح المرسل المتحمس إلى الإيمان بالله . ولكنه بعد ذلك انقلب إلى تعطيل جامع حتى إن آخر مؤلفاته كان كتاباً في نقد البابوية . ألحقه بآخر في نقد التوراة . وكلمة « النقد » هنا ملطفة . لأننا لو وضعنا في مكانها كلمة « نقض » لكنا أقرب إلى الغرض الذي قصد إليه . وقد أحزن هذا التحول كثيراً من الأحرار الذين كانوا في بداية القرن يستشهدون بأقواله ويقتبسون منها كي يبرهنوا على أن عظماء المفكرين هم على الدوام من المؤمنين .

من هنا وهناك

إلى المجهول

في الظلام المالك حيث يختفي كل شيء . . .
بين العواصف الشديدة والرياح الفاضية
أسلك وحدى طريقاً طويلة . . . إلى المجهول . . .

إنها طريق شائكة ، مخوفة بالآخطار
ولكن الحنين المنبعث في قلبي إلى المجهول
يشير همتي ويضاعف نشاطي ويشد قواي
فأسرع في سيري هائلاً بالعواصف والرياح
غير عابئ بالأسواق تدمى قدمي . . .

ومن أعماق الظلام يشرق على نور ساطع
فأرى وجها مشرقاً تكتفه هالة من نور
أثبت فيه عيني وأطيل فيه التحديق
فأرتعش منه وأضطرب اضطراباً شديداً
ويخفق قلبي خفقات قوية متراحمة . .

ومن العواصف الهائجة اسمع صوتاً خافتاً
ولكنه ناعم ، له جرس رقيق يشير الأشجان
وبللاً صداد أذني وقلبي المضطرب
وكأنه يدعوني ويلح علي بالوقوف
لأترك طريق وأتجه نحو الوجه المنير . . .

وأشعر بقوة خفية تشدني بعنف
وكأن يداً خفية ناعمة تلامس يدي
لتقودني إلى مشرق النور ومبعث الصوت . . .
إن جسمي يرتجف لهذا الاحساس الغريب
ولكن اليد تشدني بقوة وعنف لا يقاوم . . .

وجه منير وصوت عذب ويد جبارة
تدعوني بل تدفني في طريق جديدة
ألمح زهوراً ووروداً فرشت عليها
سماؤها صافية تتألق فيها النجوم
وجوها هادئ جميل لا يعكره شيء . . .

واقف متردداً دهشاً ، مضطرباً
وأحاول أن أخطو وأنجو من الظلام
لكن صوتاً جباراً ينبثق من أعماق نفسي
ارتعدت منه وارتجفت أضلعي لقوته
صرخ في بقاوة ... في طريقك إلى المجهول ...

فأمسح دمعين تحدرتا على خدي
وأغمض عيني لئلا أرى ذلك الوجه
وأطبق يدي على أذني كيلا أسمع الصوت
وأتحسس يدي لأنجو من اليد الجبارة
وأندفع في طريق ، على الشوك ، وفي الظلام ...

عناية مغمضتان ورغم ذلك أرى وجهها
وأذنان مسدودتان ومع ذلك أسمع صوتاً
وبدي طليقة ولكنني أشعر بقوة تشدها
أما قلبي ! فانه ليتقطع حزناً وهماً
ومع ذلك أندفع بقوة في طريق المظلم ...

يفرني ظلام مخيف ، وتلفحن ربح عاتية
يدى الشوك قدمي ، وأتعث في سيري
يهزني الألم ، وتفيض دموعي بفزارة
ولكنني أتابع السير لأن ذلك الصوت الجبار
لا يزال يصرخ بي : في طريقك إلى المجهول ...

شماره الثمري

[دمشق]

رسالة

« وإذا الحياة على يديه جنة تشيع فيها الأنوار
وتعبق الرياحين ، حتى ينقلب المرء بها ، عند
نهاية المطاف ، إلى حالة من الوجود ، يتنفس
فيها ملء رئتيه ناعماً مطمئناً ... »
« ولكن لي حول ذلك الموضوع ملاحظة
أحسن أن إغفالها لا يرضيك ، بل يفضبك ،
بل تجد فيه ضرباً من الصاعقة ، ما زلت

« ... قرأت ، كعادتي ، ما تفضلتم به على
قراء العربية في عدد أغسطس الأخير من مجلة
« الكاتب المصري » عن « الأدب بين الاتصال
والانفصال » فكنت معجبا ، كعادتي أيضاً ،
بهذا الأسلوب الرقراق الشفاف الذي يتناول
مشاكل الفكر والحياة مترقفاً هادئاً ، فيوسع
منها المضايق ، ويمهد العقبات ، ويجلو الغياهب ،

على أنها محض خيال أو نتيجة شذوذ، ويتجاوزها إلى ما اعتاد من حياته الخاصة وموحياتها الهزيلة. وهكذا تتسع الشقة بين الأدباء والحياة الواقعة وتزداد توتراً يوماً عن يوم! هذا ما حدث لأفلاطون في فجر التاريخ العقلي، وهذا ما حدث لجان چاك روسو، وهذا ما حدث للمعري، بل هذا ما يحدث اليوم لكل شاعر وأديب ومفكر.

« وكان المفكرون من قبل والأدباء، يناضلون ويحرصون على رفع الجماهير إلى مستواهم الفكري دون أن تستغلهم الشهوات إلى مستوى الجماهير، وكانوا يلقون في هذا السبيل من عنت الحكام وجور الأيام قاصمات الظهور. ولكن المرحلة الراهنة من تطور الانسانية أغرت معظم أدباؤها بالمظاهر فوقفوا عن النضال، وحسبوا أن في الصحافة والجوائز والمناصب تقديراً صحيحاً، وأن في تأليف الكتب ونشر المقالات صيغة النضال المثلى... وهذا يعني أنهم نزلوا عن رسالتهم، وانتقضوا على تاريخهم؛ فليس ثمة من سقراط يجوب الشوارع ويحتك بالعامية يهديها، ولا من أريحي يقوم اعوجاج السلطان بحمد السيف إذا اقتضى الأمر، ولا من معري يحتمل الأذى ويتأفح عن الحق ويبحث عن الحقيقة!

« فأديب اليوم بين أمرين أحلاهما مر: إما أن ينفخرط في الحياة الواقعة ويفقد رسالته، وإما أن يعتزل فلا يستطيع تأديتها. » هذه هي المشكلة الحقيقية التي تهمز عالم الأدباء اليوم. هذا هو وجهها الصحيح، وهذا ما أرجو أن تعالجوه في المستقبل. »

عبد اللطيف سزاده

تحمل عليها وعلى مصطنعها، في كل فصل من فصولك النقدية التي تمور بحب الحقيقة والدعوة إلى خدمتها إن في « حديث الأربعاء » وإن في غيره.

« أما هذه الملاحظة فهي أن « وضع » المشكلة التي عرضت لها في حديثك الشيق عن اتصال الأدب بالحياة الواقعة وانفصاله عنها، جاء مغلوطاً. لأن صلة الأدب بالحياة قضية مفروغ منها، فهي من الواضوح والبساطة بحيث لا تحتاج إلى نقاش وتقرير. فالأديب كائن حي يتأثر كغيره من الكائنات الحية بما يشتمل في كيانه من جهة، وبما يجزى في محيطه من جهة أخرى، وكل ميزته أن يعبر - مضطراً أغلب الأحيان - عن تأثراته بطريقة من الطرق!

« حقيقة المسألة كما أحسب، هي هذه الظاهرة في طبيعة الأدباء - لا في الأدب - التي وصفتها عند ذكر أبي العلاء بكلمة « وحشية ». فان أكثر الذين حفظ التاريخ أسماءهم من الأدباء والمفكرين يزعمون إلى العزلة، ويتممون بالناس، ويتحامون ولوج الحياة العملية وشؤونها المباشرة، ويلقون متعهم الكبرى في التأمل الصامت. وقد لخص هذه الطبيعة شاعر قديم بقوله:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطيّر

« ومن شأن هذه الطبيعة التي تنتظم الكثرة الساحقة من رجال الفكر والأدب أن تتخلق الرب في نفوس الجمهور وتمنع من تفهم ما يلقى إليه من المعاني والأفكار، فيأخذها

[لبنان]